نظرات أدبيّة حول تفسير الطّبريّ

الدكتور جليل تجليل
جامعة طهران

إنّ تفسير الطبري بحر زاخر لعلوم جّمة قد انطوت بين دفّات هذا التفسير القيّم وقد انتقىٰ كتاب المقال أسساً بلاغية منه ليوقف القارئ علىٰ المواقف البلاغية الطريفة الموحية للغاية، التي أكّد عليها الإمام الطبري في كتابه، بحيث نرىٰ فيه بديع معاني القرآن وطرائفه العذبة، والنقيّة والجزلة.

وفي المقال يدور الحديث أيضاً عن الإشارات النحوية التي تكمن فيها بلاغة، وركّز عليها الطبري، وإن تبدو غير مألوفة استعمالاً آنذاك، والتلميح بأنّ الجهود المضنية التي بذلها الطبري في تفسيره لم تقتصر علىٰ ناحية واحدة من العلوم المتوفّرة في عصره لفهم القرآن بصورة أفضل وأعمق وأتم.

إذا ألقينا نظرة إلى تفسير الإمام الكبير العلاّمّة الشهير، تفسير الطبري الذي ألّفه مقدّم المفسّرين أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري وسمّاه **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، نجد بحراً زاخراً من النكات الأدبيّة والقيم البلاغيّة، ونلقي فيما يلي نظرة إلى بعض النواحي الأدبيّة باحثين هذا في بعض الملاحظات النحويّة والأدبيّة والبلاغيّة والبديعيّة مشيرين إلى شواهد وحجج استفدناها من أوراق هذا التفسير الشريف بايجاز ودون دعوى الاستقصاء والالمام بكلّ ما جاء فيه من لطائف بلاغيّة ونكت أدبيّة.

الغرض الأعلى من هذا التفسير، شرح تأويل القرآن وبيان معانيه والاستيعاب لكلّ حاجات النّاس إليه والايضاح في الاتفاق والاختلاف فيه وتبيين علل كلّ مذهب من مذاهب من تقدّم في هذا الباب، كما صرّح الطبري في مقدمة الكتاب:

«ونحن في شرح تأويله، وبيان مافيه من معانيه، منشئون ـ إن شاء اللّه ذلك ـ كتاباً مستوعباً لكلّ ما بالنّاس إليه الحاجة من عمله جامعاً، ومن سائر الكتب في ذلك كافياً، ومخبرون في كلّ ذلك بما انتهى إلينا من اتّفاق الحجّة. فيما اتّفقت عليه الأُمّة، واختلافها فيما اختلفت فيه منه، ومبيّنو علل كلّ مذهب من مذاهبهم، وموضّحو الصحيح لدينا من ذلك بأوجز ما أمكن من الايجاز في ذلك...»[1].

ولهذا الايجاز المشار علّق بعض العلماء حواشي وتعليقات كحاشية حسن بن محمّد القمي الذي أورد في تعليقته:

«... لمّا كان التفسير الكبير المنسوب إلى الامام الأفضل والهمام الأمثل، الحبر النحرير والبحر الغزير، الجامع بين المعقول والمنقول الفائز بالفروع والاصول، أفضل المتأخرين فخر الملّة والدين، محمّد بن عمر بن الحسين الخطيب الرازي،

تغمدّه اللّه رضوانه وأسكنه بحبوحة جنانه، اسمه مطابق لمسماه وفيه من اللطائف والبحوث مالا يُحصى ومن الزوائد والغثوث مالا يُخفى، فانّه قد بذل مجهوده وفتل موجوده على عسر كتبه على الطالبين وأعوز تحصيله على الراغبيين... فأوردت حاصل كلامه وقرّبت مسالك أقدامه»[٢].

فهـا أنـا أورد مجمـلاً من نثره البديع ويراعه اللامع من مقـدّمته حيث حمد اللّه سبحانه باسجاع وموازنات والتعابير المحلاة بالتسجيع والطباق وغيرهما من لطائف بديعية:

«الحمدُ للّه الذي حجبت الألباب بدائع حكمه وخصمت العقول لطائف حججه، وقطعت عذر الملحدين عجائب صنعه، وهتفت في أسماع العالمين ألسن أدلّته، شاهدة أنّه اللّه الذي لا اله الاّ هو، الذي لاعدل له معادل، ولا مثل له مماثل، ولاشريك له مظاهر، ولا ولد له ولا والد، ولم يكن له صاحبةً، ولا كفواً أحـد...، فكل موجود إلى وحدانيّته داع، وكل محسوس إلى ربوبيّته هاد، بما وسمهم به من آثار الصنعة من نقص وزيادة وعجز وحاجة...»[٣].

فانّـا نلاحظ الاسجـاع والمـوازنـات بين «بدائع حكمه، ولطائف حججه»، وبين «لا عدل له معادل ولا مثل له مماثل» وهكـذا التجنيس المـوجـود بين «العبارتين الاخرتين» ونرى التلميح» بالآيات القرآنية كما نرى في عبارة: «لا ولد ولا والد» اشارة إلى «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»[٤] هذا ونلاحظ صنعة الطباق بين «نقص وزيادة» ومراعاة النظير بين «عجز وحاجة»... ثم أخذ نيعت النبي الأكرم واليك بعض ماجاء به في مقدّمة الكتاب:

«فإنّ من جسيم ماخصّ اللّه به أُمّة نبيّنا محمّد (ص) من الفضيلة... حفظه ماحفظه، جلّ ذكره وتقدمت أسمائه، عليهم من وحيه وتنزيله، الذي جعله على حقيقة نبوّة نبيّهم(ص)... أبانه به من كل كاذب ومفتر، وفصل بينهم وبين كل جاحد وملحد، وفرّق به بينهم وبين كل كافر ومشرك، الذي لو اجتمع جميع من بين أقطارهـا، من جنها وإنسها... على أن يأتوا بسورة من مثله، لم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»[٥].

ففيه حفظ «مراعات النظير» و«العموم والخصوص» بين «جاحد وملحد» و«كافر ومشرك» و«التجنيس» بين «لو اجتمع جميع مَن»... والتلميح القرآني في «لو اجتمع جميع مَن.. إلى الآية الكريمة: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾[٦].

أمّـا من النواحي الأدبية الأخرى ونخص بها الظرائف اللغوية والنحوية فنشير إلى ماجاء في الآية الكريمة: ﴿**إنّ اللّه لايستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها...**﴾[٧]:

أوّلاً: إنّه اوضح وجه الاستحياء من اللّه سبحانه.

ثانياً: معنى «ما» موجودة في «ما بعوضة».

ثالثا: وجه اعراب بعوضة.

وأورد نكات عديدة هامة كما يلي:

«... أمّـا تأويل قولـه ﴿**إن اللّه لايستحيي**﴾ فانّ بعض المنسوبين إلى المعرفة بلغة العرب كان يتأوّل معنى ﴿**إن اللّه لايستحيي**﴾ انّ اللّه لايخشى أن يضرب مثلاً، ويستشهد على ذلك من قوله، بقول اللّه تعالى: ﴿.. **وتخشى النّاس واللّه أحقّ أن تخشاه...**﴾ ويزعم أنّ معنى ذلك: وتستحيي الناس واللّه أحق أن تستحيه، فيقول: الاستحياء بمعنى الخشية، والخشية بمعنى الاستحياء[٨].

ثم استشهد بقوله: ﴿**أن يضرب مثلاً**﴾ وقال: إنّه بمعنى أن يبـيّن ويصف كما قال: جلّ ثنـاءه: ﴿**ضـرب لكم مثـلاً مِن أنفسكم**﴾ بمعنى وصف لكم... كما قال كعب بن زهير:

كانـت مواعـيد عرقـوب لها مثـلاً
ومـا مواعـيد عرقـوب إلاّ الأبـاطيل

ثمّ انبرى يوضّح معنى «ما» في الآية بقوله:

(أمّـا «مـا» التي مع مثل، فانها بمعنى الذي، لأنّ معنى الكـلام: إنّ اللّه لايستحيي أن يضـرب الذي هو بعوضة في الصّغر والقلّة فما فوقها مثلاً، فإن قال لنا قائل: فإن كان القول في ذلك كما قلت، فما وجه نصب البعوضة، وقد علمت أنّ تأويل الكلام على ما تأوّلت ﴿**إنّ اللّه لايستحيي أن يضرب مثلاً**﴾ الذي هو بعوضة، فالبعوضة على قولك في محل الرفع فأنّى أتاها النصب؟ قيل أتاها النصب من وجهين:

إحدهما أنّ ما، لمّا كانت في محل النصب، بقوله ﴿**يضرب**﴾ وكانت البعوضة، لها صلة اعربت بتعريبها، فألزمت إعرابها، كما قال حسّان بن ثابت:

وكفى بنا فضلا على غيرنا
حبّ النّبيّ محمّدٌ إيّانا

فعرّبت «غير» باعراب «مَن»، فالعرب تفعل ذلك خاصة في مَن وما، تعرب صلاتها باعرابها، لأنّها يكونان معرفة أحيانا ونكرة أحيانا.

وهنا وجه آخر، يجب أن تكون بعوضة منصوبة بـ «يضرب» وأن تكون «ما» النافية التي في «فما فوقها» معطوفة على البعوضة، لا، على «ما»)[١٠].

ومن جملة ما اخترت من تفسير الطبري بيان جواز توحيد ما اضيف له صيغة افعل في الآية الكريمة: ﴿.. ولا تكونوا أوّل كافر به...﴾[١١] لأنّه يمكن أن يقال:

«كيف قيل: ﴿ولا تكونوا أوّل كافر به﴾ والخطاب فيه للجمع وكافر واحد، وهل تجيز إن كان ذلك جائزاً أن يقول قائل: لاتكونوا أوّل رجل قام؟ قيل له: إنّما يجوز توحيد ما اضيف له أفعل وهو خبر للجمع إذا كان اسماً مشتقاً من فعل يفعل، لانه يؤدي عن المراد معه المحذوف من الكلام، وهو مَن، ويقوم مقامه في الأداء عن معنى ماكان يؤدّى عنه من، من الجمع والتأنيث وهو في لفظ واحد، ألا ترى انّك تقول: ولا تكونوا أول مَن يكفر به، فمَنْ بمعنى جمع وهو غير متصرف تصرف الأسماء للتثنية والجمع والتأنيث، فإذا أقيم الاسم المشتق من فعل ويفعل مقامه، جرى وهو مُوَحَّدٌ مجراه في الأداء عمّا كان يؤدّي عنه من معنى الجمع والتأنيث، كقولك الجيش ينهزم، والجند يقبل، فتوحّد الفعل لتوحيد لفظ الجيش والجند، وغير جائز أن يقال: الجيش رجل، والجند غلام، حتى تقول الجند غلمان، والجيش رجال، لأنّ الواحد من عدد الأسماء التي هي غير مشتقة من فعل ويفعل، لايؤدي عن الجماعة منهم ومن ذلك قول الشاعر:

واذا هُمُو طَعِمُوا فألأمُ طاعمٍ
وإذا هُمُو جاعوا فشرُّ جياعِ

فوحّد مرّة على ماوصفت من نية مَن، وإقامة الظاهر من الاسم الذي هو مشتق من فعل ويفعل مقامه، وجمع أخرى على الإخراج على عدد اسماء المخبر عنهم، ولو وحد حيث جمع أو جمع حيث وحد، كان صواباً جائزاً»[١٢].

وقال أبو جعفر في تأويل قوله جلّ ثناءه: ﴿ولهم عذاب أليم﴾[١٣]:

«الأليم هو الموجع، ومعناه: ولهم عذاب مؤلم، فصرّف مؤلم إلى أليم، كما يقال ضربٌ وجيع بمعنى موجع، ﴿والله بديع السموات والأرض﴾، بمعنى مبدع، كما حدّثني المثنّى، قال حدّثنا إسحاق، قال: حدّثنا عبدالله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، قال: الأليم الموجع»[١٤].

وهنا نكتة بلاغية، لابُدّ من ذكرها، وتلك أن تجوز المعاني من مبني للفاعل إلى مبني للمفعول من مقولة المجاز اللغوي كما في الآية و ﴿عيشة راضية﴾ و ﴿سيل مفعم﴾ فكلمتا راضية ومفعم مجازان بمعنى مرضية ومفعم.

ورأيت استقصاء تاماً في وجه نصب غشاوة في الآية الكريمة: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة...﴾[١٥] فإنّه جواب قول قائل يسأل ماوجه مخرج النصب فيها؟ فانّه أوضح مجيباً له:

«إنّ تصبها باضمار» «جعل» كأنه قال وجعل على أبصارهم غشاوة ثم أسقط «جعل» اذ كان في أول الكلام مايدل عليه، وقد يحتمل نصبها على إتباعها موضع السمع، اذ كان موضعه نصباً، وإن لم يكن حسنا إعادة العامل فيه على غشاوة، ولكن على إتباع الكلام بعضه بعضا، كما قال تعالى ذكره: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلّدون بأكواب وأباريق﴾، ثمّ قال: ﴿وفاكهة ممّا يتخيّرون، ولحم طير ممّا يشتهون، وحور عين﴾ فخفض اللّحم والحور على العطف به على الفاكهة إتباعاً لآخر الكلام أوّله، ومعلوم أنّ اللّحم لايطاف ولا بالحور، ولكن ذلك كما قال الشاعر يصف فرسه:

عَلَفْتُها تِبناً وماءً بارداً
حتّى شَتَتْ هَمّالةً عيناها

ومعلوم أنّ الماء يشرب ولايُعلف به، لكنّه، نصب ذلك على ما وصفت قبل، وكما قال الآخر:

ورأيت زوجَك في الوغى متقلّداً سيفاً ورمحاً

ثمّ أورد كلاما آخر وقال: حدّثنا القاسم، قال: حدّثنا الحسين، قال: حدّثني الحجّاج، قال: حدّثنا ابن جريح، قال: الختم على القلب والسمع والغشاوة على البصر، قال الله، تعالى ذكره: ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ وقال: ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غِشاوة﴾ والغشاوة في كلام العرب الغطاء[١٦].

وأمّا اختلاف القراءات في كلمة الحَسن في الآية: ﴿.. وقولوا للنّاس حسناً...﴾[17] ممّا جاء به الطبري في تفسيره ونورد هيهنا بعض الآراء الواردة في ذلك الكتاب المُمتع:

وأمّـا الحسن فإن القرّاء اختلفت في قراءته، فقرأته عامّة قرّاء الكوفة غير عاصم: ﴿وقولوا للناس حَسَناً﴾ بفتح الحاء والسين، قرائة عامّة قرّاء المدينة ﴿حُسناً﴾ بضمّ الحاء وتسكـين السـين. وقـد روي عن بعض القراء أنه كان يقرأ ﴿وقولوا للنّاس حُسنىٰ﴾ على مثال فُعلى، واختلف أهل العربية في فرق مابين معنى قوله: حُسناً وحَسَناً. فقال بعض البصريين: هو على أحـد وجهـين: إمـا أن يكون يراد بالحُسن الحَسَن. وكلاهما لغة، كما يقال: البُخل، والبَخَل، وإما أن يكون جعل الحسن هو الحسن في التشبيه، وذلك أنّ الحُسن مصدر، والحَسَن هو الشيء الحَسَنُ، ويكون ذلك حينئذٍ كقولك: إنّما أنت أكْلٌ وشُربٌ، وكما قال الشاعر:

وخَـيْلٍ قد دَلَـفْـتُ لها بِخَـيْلٍ
تَحِيَّـةُ بَينهـم ضربٌ وجـيعُ

فجعل التحيّـة ضرباً، وقال آخرُ بل الحُسن هو الاسم العام الجـامع جميع معـاني الحَسَن، والحَسَنُ هو البعض من معاني الحُسن، قال ولـذلـك قال، جلّ ثناءه، اذ أوصى بالوالدين: ﴿ووصّينا الانسان بوالديه حُسنا﴾ يعني بذلك أنّه وصّاه فيهما بجميع معاني الحسن، وأمر في سائر الناس ببعض الذي أمره به في والديه...»[18].

وختاماً نستطيع أن نلقي نظرة إلى الناحية الأدبية اللامعة في تفسير الطبري المشتملة على بحوث لغوية ونقارنها بسائر الكتب الموجودة في هذا الفنّ إن شاء اللّه وإنّي تناولت هذا الموضوع في أوجز ممّا يمكن في هذا المقال كما يقال: مالايدرك كله لايترك كله، والسلام عليكم والحمد للّه ربّ العالمين.

المصادر والهوامش:

١ ـ تفسير الطبري، طبعة مصر، ١٣٧٣هـ، ج١، ص ٥.
٢ ـ غرائب القـرآن ورغـائب الفـرقـان، حسن بن محمـد القمّي النيسابوري، ص٥ ـ ٦.
٣ ـ تفسير الطبري، ج١، ص ٣.
٤ ـ سورة الإخلاص (١١٢) الآية ٣، ٤.
٥ ـ تفسير الطبري، ج١، ص ٤.
٦ ـ سورة الإسراء (١٧)، الآية ٨٨.
٧ ـ سورة البقرة (٢)، الآية ٢٦.
٨ و ٩ ـ تفسير الطبري، ج١، ص ١٧٩.
١٠ ـ نفس المصدر، ج١، ص ١٧٩، ١٨٠.
١١ ـ سورة البقرة (٢)، الآية ٤١.
١٢ ـ تفسير الطبري، ج١، ص ٢٥٢.
١٣ ـ سورة البقرة (٢)، الآية ١٠.
١٤ ـ تفسير الطبري، ج١، ص ١٢٣.
١٥ ـ سورة البقرة (٢)، الآية ٧.
١٦ ـ تفسير الطبري، ج١، ص ١١٤.
١٧ ـ سورة البقرة (٢)، الآية ٨٣.
١٨ ـ تفسير الطبري، ج١، ص ٣٩١.